٢ . من نشوء الفكرة الصهيونية الى دير ياسين ...

ليس من العسير على المرء ان يفهم ذلك الوهم المنتشر أعظم انتشار بين اليهود وغيرهم والقائل بأن يهوه جعل أرض الميعاد « رهناً » لجميع اليهود في العالم ، سواء أكانوا يرقون آخر الأمر الى العبرانيين أم لا . فبالنسبة الى كثير من اليهود الواعين أحسن الوعي أصلهم الخزري مثلاً شجعت فكرة « الوطن الروحي » في فلسطين الوَهْمَ الزاعم بأن لهم حقوقاً شرعية في تلك الديار . **والحقيقة الواضحة تحتم علينا القول بأن سيادة العبرانيين القصيرة على فلسطين لا تمنحهم من الحقوق فيها غير جزء مما تمنحه سيادة العرب والفرس والرومان على الديار المقدسة من حقوق . بل انها لا تمنحهم حقوقاً تتساوى وحقوق الصليبيين الاوروبيين أنفسهم . والى ذلك ، فقد كان ثمة طبعاً حقيقة إضافية وهي أن فلسطين كانت آهلةً بالعرب العصريين الذين ترجع ملكيتهم للأرض الى القرن السادس عشر . والواقع ان التنكّر الفجائي للحقوق الطبيعية واخراج الشعب الذي يملك الارض ويحرثها من دياره ليس الا من عمل الساسة المتعودين التصرّف بما يملكه الآخرون** ، واليهود الذين اكتسبوا تفكيرهم وأخلاقيتهم من الاحياء القذرة التي اقاموها

لانفسهم في اوروبة الشرقية . لان اليهود هم الذين خلقوا الاحوال السائدة في أحيائهم الخاصة Ghettoes ، لا أحد غيرهم .

وبدأت الحملة الصهيونية بنشاط يهودي نمسوي يدعى ثيودور هيرتزل ، Herzel ولكنهـــا شأنَ معظم الحركات لم تكن غير التنسيق الاخير لعدة محاولات سابقة .

ففي اواخر القرن التاسع عشر أعانَ يهوديٌ المـــاني يدعى البارون موريس دي هيرش Hirsch جمعيةَ الاتحـاد الاسرائيلي العالمية (آليانس) في باريس والجمعية الانكليزية اليهودية في لندن على انشاء مستعمرات يهودية في كندا وجنوبي افريقية وغيرهما . وكان من انصار هذه الحركة الكولونيل غولد شميت Goldschmidt الذي اقترح انشاء ميليشيا يهودية لاستعمار فلسطين .

ومهما يكن من أمر فأن ثيودور هيرتزل ، الصحافي النمسوي ، يُعتبر ابا الحركة الصهيونية الرئيسي ، على الرغم من ان المحاولات لأنشاء دولٍ يهودية مستقلة خارج اوروبة لم تنقطع طوال قرون ثلاثة سبقت دعوته . ففي سنة ١٥٦٦ فاوض يهودي اسباني برتغالي (ولعـــله ان يكون ساميّاً) يدعى دوم جوزيف ناسي Nasi السلطانَ العثماني لكي يمنحه ارضاً قرب بحيرة طبريا رجاة ان يجعل منها وطناً قومياً في المستقبل . وفي سنة ١٦٢٥ قدمت شركةُ جزائر الهند الغربية الهولندية مقاطعة كبيرة من جزيرة كوراكاو الى جماعة من اليهود الهولنديين ليعمروها ويستقروا فيها . وانشأ اوليفر كرومويل مستعمرة يهودية في ما عُرف بعـدُ بمستعمرة سورينام الهولندية . وانما كان ذلك عـــلى سبيل المقايضة بجزيرة

مانهاتان ، وهي واقعة تاريخية لا تخلو من سخرية !

وفي سنة ١٦٥٩ أنشأ الفرنسيون مستعمرة يهودية في كايين عاصمة غويانا الفرنسية (اميركة الجنوبية). واقترح مارشال دو ساكس Marshall de Saxe الدونكيشوتي اقامة مملكة يهودية في اميركة الجنوبية . واول محاولة جدية لاقامة مستعمرة يهودية في شمالي اميركة انما جرت سنة ١٨٢٥ عندما اشترى رجل يُعرف بالماجور نوح Noah جزيرة كبيرة في نهر نياغارا وأقام فيها مع اليهود . ولكن أياً من هذه التجارب لم تحظ بالنجاح ، فهي تعمر بضع سنوات ثم تُمنى بالافلاس فتخفق .

وكان هاتزل قد اقترح في كراس نشره بعنوان « الدولة اليهودية » أن تُنشأ دولة في فلسطين لا تورث سكان تلك البلاد ضرراً ما ، وان تكون الاماكن المقدسة كلها منطقة دولية بحيث يتمكن الناس على اختلاف جنسياتهم من زيارتها . كذلك اقترح ان تدفع تلك الدولة الجزية سنوياً الى السلطان العثماني . ولكنه توفي قبل ان يحقق شيئاً من ذلك .

ومنذ الثاني من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٧ ، عندما كتب مستر آرثر بلفور رسالته الشهيرة الى لورد روتشيلد ، والتي تعرف اليوم بتصريح بلفور ، خطا الصهيونيون خطوات واسعة ، فوق جثث المبادىء والضحايا البشرية العديدة ، من اجل تحقيق ذلك الوعد الشفهي المزعوم الصادر عن رب اليهود ، يهوه ، لزعيمهم موسى .

وكان عام ١٨٨١ عام « الخروج » الى الولايات المتحدة .

فبين عامي ١٨٨١ و ١٩٢٩ هاجـــر ٢،٨٨٥،٠٠٠ يهودي من اوروبة الشرقية الى الولايات المتحدة . وفي ما بين عامي ١٩٣٢ و ١٩٥٠ سُمح لاربعة ملايين يهودي آخرين بدخـول الولايات المتحدة . وهذه الارقام ذات دلالة خاصة . ذلـــك بأن التقدير الاحصائي الذي أجري ، عام ١٨٨٠ ، اظهر ان مجموع اليهود في العالم، من غربيين وشرقيين، يبلغ ٧،٦٦٣،٠٠٠ وان ٥،٧٢٦،٠٠٠ منهم كانوا يعيشون في الروسيا، وبولندة ، وغاليسيا ، ورومانيا .

وفي الوقت الحاضر يوجـــد نحو من سبعة ملايين يهودي في الولايات المتحدة ، ومليون في اوروبة ، ومليون واربعمئة ألف في اسرائيل ، وحوالى مليون ونصف منتشرين في سائر ارجـاء العالم. واذا صحّ ان معتقلات هتلر قضت على ستة ملايين يهودي — كما يزعمون — كان معنى ذلك ان عدد اليهـود زاد بنسبة ٢٤٠ ٪ خلال خمسين عاماً .

وفي مطلع القرن العشرين لم يكن في فلسطين غـير خمسة آلاف يهودي ، وكانوا يملكون ٩٥٠٠٠ أكر * من الارض. وكانوا ، شأنهم اليوم ، يعتمدون اعتماداً شبه كليّ على الهبات التي تردهم من يهود اميركة واوروبة .

وأياً ما كان، فليس من ريب في ان رسالة آرثر بلفور، رئيس الوزراء البريطـاني ، (٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٧) كانت هي "منطلق" الـــكارثة الحاضرة . ولكن حتى هذا التصريح منح

---

* الأكر فدان مساحته ٤٣،٥٦٠ قدماً مربعاً (٤،٨٤٠ ياردة مربعة) أو نحو اربعة اعشار الهكتار . [المعرب]

العرب أيضاً ، في نصه الاصلي ، حماية كاملة ، حيث قال :

« ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وستبذل جهدها لتحقيق هذه الغاية ، مع البيان الجلي بأنه لن يفعل شيء يضير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين الآن ، أو الحقوق والمركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى . »

ولو ان اليهود الذين أفادوا من هذا النصّ التزموه التزاماً صحيحاً اذن لما وقعت الحرب الفلسطينية . ولكن السير هيربرت صموئيل ، وزير الداخلية اليهودي في حكومة بلفور والمفوض السامي في فلسطين بعد ذلك ، أعاد كتابة تصريح بلفور من جديد حاذفاً العبارة التي تصون حقوق «الطوائف غير اليهودية» وقاصراً الهجرة اليهودية على مجرد قدرة البلاد الاقتصادية على استيعاب المهاجرين . وفي الحال غدت القدرة الاقتصادية على الاستيعاب رهناً بمحافظ الاموال اليهودية في اوروبة والولايات المتحدة ، وبذلك طُمس على القسم الاخير من تصريح بلفور الذي يشير الى اليهود في البلدان الاخرى .

ولعل اول نتائج تصريح بلفور إنشاء «الفرقة اليهودية» التي قاتلت مع الاوستراليين في منطقة القدس ضد الاتراك العثمانيين . وقد وطىء افرادها ارض فلسطين ، عام ١٩١٨ ، فشكلوا الاساس الاول لعصابة شتيرن ودشنوا عهداً من الارهاب حمل العرب — الذين ذُعروا لهذا الغزو ولموقف الانتداب الذي يمثله سير هيربرت صموئيل — على ان يشرعوا في بيع أراضيهم بأيّ ثمن . وطوال سنتين او يزيد ، ومن خلال برامج مدروسة من الوعيد والضغط

استولى المهاجرون اليهود على الاراضي العربية بجزء من الثمن الذي تستحقه . ولم تقف هذه الحركة الانهزامية الا بعد ان نُظمت المقاومة العربية سنة ١٩٢٠ .

وكان مما ساعد على وقفها ايضاً تصريح لونستون تشرشل، سنة ١٩٢٢ ، جاء فيه : « . . ان أحكام تصريح بلفور لا تفيد ان فلسطين كلها سوف تُحوّل الى وطن قوميّ يهودي ، ولكن تفيد ان مثل هذا الوطن سوف يُنشأ **في فلسطين** . »

ويجب ان نذكر انه كانت قد نشأت في هذه الفترة من الازمة والحرج دولة عربية في سورية — وعدَ بأقامتها البريطانيون ايضاً — ولكنها ما لبثت ان هوجمت وقُوّضت اركانها من جانب الفرنسيين الذين فازوا، وفقاً لاحكام اتفاقية سايكس بيكو السرية، بالانتداب على سورية ولبنان مقابل وضع فلسطين وشرقي الاردن والعراق تحت الانتداب البريطاني . وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الخيانة ان عصف بالعرب عاصفٌ من اضطراب . ولم يكن في سياسة سير صموئيل هيربرت ما يساعد على التخفيف من حدة التوتر . ومن هنا نشبت القلائل .

ومن سنة ١٩٢١ ساءت الحال في فلسطين على نحوٍ مطرد حتى اندلعت نار الثورة سنة ١٩٣٦ . واذا جاز لنا ان نقول ان العرب ليسوا غير ملومين بالكلية فليس من شك في أن السياسات المحيّرة التي اتبعتها الحكومة البريطانية ومفوضوها السامون — وبعضها يناقض بعضها الآخر — ينبغي ان تُعتبر هي المسؤولة عن ذلك في المحل الاول . لقد غدت فلسطين لعبةً يعبث بها البريطانيون

واليهود واصدقاؤهم . وتعاقبت النظريات والاتجاهات ، وليس في اي منها ما يأخذ مصالح العرب بعين الاعتبار .

وفي هذه الفترة التي سبقت نشوب الحرب العالمية الثانية شنت « عصابة شترن » و « إرغون تسفاي ليومي » — وكلتاهما منظمة عسكرية غير شرعية — الحربَ على العرب والبريطانيين جميعاً ، في ضراوة كانت نذيراً واضحاً بالأحداث التي سوف تقع .

وتعاظمت المقاومة العربية للتوسع الصهيوني تعاظماً مطرداً . فبعد ان اتضح للزعماء المسلمين الفلسطينيين ان بريطانية لن تقوى على صيانة مصالح العرب التي كفلها تصريح بلفور شرعوا ينظمون قواهم ويواجهون العصابات الصهيونية الغازية بنيران البنادق والكمون لها ههنا وهناك . وأخيراً وفد على فلسطين ، سنة ١٩٣٦ ، خبير في شؤون الحرب المكشوفة اسمه فوزي القاوقجي — وهو لبناني درس الفنون العسكرية في ألمانية — وقاد قوةً عربية كانت تناضل ضد الجيوش الصهيونية . وكان من نكد طالع فوزي — ولعلّ مردّ ذلك الى فعاليته الفائقة — أنه انساق الى الاشتباك بالبريطانيين . وعلى الرغم من حرب العصابات التي شنوها ثلاث سنوات مُني الفلسطينيون العرب آخر الامر بالهزيمة . ثم إن فوزي برز بعد ذلك على مسرح الثورة القصيرة التي أعلنها رشيد عالي الكيلاني على البريطانيين سنة ١٩٤١ . وجائز ان يكون رشيد عالي قد تلقى من المحور بعض المساعدات المالية . وقد ارتضى على أية حال عوناً محدوداً من سلاح الطيران الالماني (لوفتواف) الذي كان يحتل آنذاك

المطارات السورية . ولكن ذلك العون لم يكن كافياً ، فما هي الا فترة يسيرة حتى أُخمدت الثورة العراقية على يـــد الجيش العربي الاردني وبعض القوات البريطانية المجهزة بالدبابات . ثم ان هـذه القوة العربية البريطانية اصطُنعت في ما بعد لشلّ جيشٍ سوري صغير كان يخضع لسلطان فيشي .

ووضعت الحرب العالمية الثانية حداً مؤقتاً لأعمـال العنف في فلسطين . وكان شعار الصهاينة جلياً : انهم « سوف يخوضون الحرب وكأنْ ليس ثمة كتابٌ ابيض ، ويحاربون الكتاب الابيض وكأنْ ليس ثمة حرب . » ولم يكن « الكتاب الابيض » هـذا غير محاولة بريطانية لجلاء ما انتهى الى ان يصبح ، الآن ، وضعاً مشوّشاً الى حدّ يوقع اليأس في النفوس . ذلك بأن لنـدن كانت قد نفخت على الهجرة اليهودية ريحاً ساخنة حيناً ، باردة حيناً آخر ، الى ان صار في فلسطين عدد من اليهود يتعذر معه العيش في سلام مع العرب إلا من طريق طرد اليهود الذين دخلوا البـــلاد على نحو غير شرعي ، واستولوا بطريقة شرعية او غير شرعيـــة على الاراضي العربية .

وهكذا نشرت الحكومة البريطانيـــة ، في نوار سنة ١٩٣٩ كتاباً ابيض لم يزد المشكلة إلا تعقيداً . وإنما قُصِد بهذه الوثيقة ، في الأساس ، الى إعادة الثقة الى نفوس العرب . فنصّت على أنه سوف تُنشأ بعـد عشر سنوات ، دولة فلسطينية دستورية مستقلة تطمئن معها قلوب العرب الى ان الهجرة اليهودية الموصولة ستعدّل على نحوٍ لا يجعل من العرب ، في المستقبل ، أقلية في البـــلاد .

ووفقاً لذلك :

« أ » فلن يسمح خلال السنوات الخمس التالية لأكثر من خمسة وسبعين الف يهودي بالدخول الى فلسطين . وبعدها لن تكون هجرة يهودية الى البلاد إلا برضا العرب .

« ب » ويحرم شراء اليهود للاراضي في بعض المناطق ، ويحدد في بعضها الآخر .

وأقرّ الكتاب الأبيض بأن إطلاق العنان للهجرة اليهودية غير المحدودة خليق به أن يؤدي الى طغيان اليهود على العرب ، وهو وضع يتناقض مع تصريح بلفور ، وعهود بريطانيا الخاصة للعرب ، ومع المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم .

وفي بريطانية والولايات المتحدة أدى نشر الكتاب الأبيض الى حملة خطابية تهديدية شنّها "صهيونيون البارزون ، على حين شجع « عصابة شترن » و « إرغون تسفاي ليومي »ـ في فلسطين ـ على استئناف العدوان . وكان اندلاع نار الحرب العالمية في أيلول قد حمل الى الديار المقدسة ـ كما قلنا آنفاً ـ سلاماً محموماً، ولكنه نسبيّ ، بعد أن تهدّدت قوات المحور التي احتلت لبنان وسورية يهودَ فلسطين بخطرٍ جسيم دونه الخطر العربي أو الخطر البريطاني .

ولكن انتهاء الحرب ضد المانية ، سنة ١٩٤٥ ، جدّد الضغط اليهودي في فلسطين ، وفي لندن ، وفي واشنطون . واستُغِلّ **انجراف الرئيس هاري ترومان مع التيار الصهيوني استغلالاً بالغاً الى حد جعل مسألة انشاء دولة يهودية في فلسطين تُقدَّم على كثير من المشكلات الاميركية والدولية الكبرى التي تهم الولايات المتحدة اكثر مما تهمها المشكلة الصهيونية بما لا**

يقاس . وأخيراً ، وبعد الحاف شديد من واشنطن ألفت لجنة انكليزية اميركية للتحقيق في المشكلة الفلسطينية . وكانت اعمال العنف قد استؤنفت ،حتى قبل أن تستسلم ألمانية ، وكان الارهابيون اليهود قد صرعوا لورد موين في القاهرة ، عام ١٩٤٤ ، وقاموا بأعمال عديدة من التقتيل والتحريق في حيفا ويافا والقدس . وفي عام ١٩٤٥ أطلق اليهود موجةً من الارهاب – من طريق الاغتيالات والقاء القنابل وغيرهما – جعلت من الواضح ، حتى في واشنطن نفسها ، أن للقضية وجهةً عربية . وكأنما أراد اليهود ان يؤكدوا على هذه الحقيقة التي تتناساها الحكومة الأميركية فنسفوا مقرّ الشرطة العام في القدس مُهلكين بذلك عدداً من البريطانيين والعرب ، وعدداً من اليهود في وقت معاً .

وفي كانون الاول ١٩٤٥ وصلت الى فلسطين لجنة اثنا عشرية بريطانية اميركية لدرس القضية وانصرفت الى جمع الحقائق التي تمكنها من ابداء رأيها . وقد نشرت هذه اللجنة تقريرها في نيسان ١٩٤٦ .

وفي الوقت نفسه كان نشاط المنظمات الصهيونية المتكاثف ، في الولايات المتحدة، قد أدى الى خلق منظمات غير شرعية في اوروبة مهمتها اختيار الشبان اليهود ذوي الاجساد السليمة وترحيلهم الى فلسطين ابتغاء تعزيز الجيوش اليهودية التي كانت قد أنشئت قبل ذلك هناك . وانما كشف عن هذا البرنامج – الذي نهض جماعة من المواطنين الاميركيين بكامل نفقاته والذي نفذه نفرٌ من الضباط في الجيش الأميركي – الجنرال مورغان ، مدير

هيئة الأغاثة التابعة للامم المتحدة في المانية . وكانت النتيجة الوحيدة لهذا الكشف إبعاد الجنرال مورغان من منصبه. اما عملية الترحيل فظلت قائمة على قدم وساق ، من غير ان تُمسّ .

وايا ما كان ، فقد اشتمل تقرير اللجنة البريطانية الاميركية على ما يلي :

«أ» ان ثمة ، في الوقت الحاضر ، حظوظاً قليلة في ايواء عدد من المهاجرين اليهود ، بالغاً ما بلغ ، في غير فلسطين . ولكن فلسطين وحدها لا تستطيع ان تنهض بالعبء كله . من اجل ذلك يتعين على الحكومتين (بريطانية والولايات المتحدة) ان تسعيا ، بمعاونة البلدان الأخرى ، لأيجاد مواطن جديدة للمهاجرين اليهود حيثما دعت الحاجة ، وان تبذلا جهدهما لضمان الحريات لاولئك اليهود الذين يؤثرون البقاء في اوروبة .

«ب» . يجب ان يرخص ، في الحال ، لمئة الف من اليهود ضحايا الاضطهاد النازي والفاشستي بالدخول الى فلسطين . وينبغي ان يتم ترحيل هؤلاء باسرع ما تسمح الاحوال في ذلك .

«ج» . يجب ان يصدر نص صريح في ما يتصل بمستقبل فلسطين السياسي ، مؤداه ان اليهود لن يطغوا على العرب ، وان العرب لن يطغوا على اليهود في فلسطين . وان فلسطين لن تكون لا دولة يهودية ولا دولة عربية. وان فلسطين يجب ان تصبح آخر الأمر دولة تحكم نفسها بنفسها وتكفل حقوق المسلمين واليهود والنصارى على السواء .

«د» . ان انشاء دولة أو دول مستقلة الآن جدير به أن يؤدي الى فتنة داخلية قد تهدد سلام العالم . واذن ، فألى ان يزول الخلاف العربي اليهودي يتعين على حكومة فلسطين ان تحافظ على شكلها الانتدابي ريثما تخضع لوصاية هيئة الامم المتحدة .

«هـ» . يجب على حكومة الانتداب او الوصاية ان تعلن هذا المبدأ : وهو ان تقدم العرب الاقتصادي والثقافي والسياسي ، في فلسطين ، يهمها بقدر ما يهمها تقدم اليهود في هذه الميادين . وان تتخذ في الحال الاجراءات الكفيلة

برفع مستوى المعيشة العربيـة الى المستوى اليهودي . (يجب ان يذكر هنـا ان الحاخام ريفوسكي Revuski اتهم اليهود بأنهم يعاملون اجراءهم من العرب معاملة العبيد الأرقاء .)

«د» يجب ان تبطل قوانين ١٩٤٠ الخاصة بانتقـال الاراضي بحيث تطلق الحرية لليهود في اكتساب الاراضي العربية . اما الاماكن المقـدسة « فينبغي ان تصان من التدنيس » .

«و» . إن برامج التطور الاقتصادي الضخمة لا يمكن ان تنجح في فلسطين من غير رضا ابنائها من العرب وتعاون الدول العربية المجاورة . وهذه البرامج ينبغي ان تدرس وتنفذ لا بالتشاور الكامل مع الوكالة اليهودية (في فلسطين) وحسب ، ولكن مع حكومات الدول العربية المجاورة ايضاً .

«ز» . يجب ان يوضح بأجلى بيان لكل من اليهود والعرب ان ايما محاولة من جانب اي من الفريقين للحؤول دون تنفيذ هذا التقرير ، سواء بالتهديـد باستعمال العنف او بالارهاب او بتنظيم او اصطناع الجيوش غير الشرعية،سوف تقمع في حزم . ويتعين على الوكالة اليهوديـة ان تستأنف في الحال التعاون الفعال مع حكومة الانتداب لوقف الارهاب والهجرة غير الشرعية ، وفي اقرار النظام والقانون في طول فلسطين وعرضها .

ولم يستقبل ايّ من العرب او اليهود هـذا التقرير استقبالاً حسناً . فقد شجب العرب الهجرة والتوصيات الخاصة ببيع الاراضي بوصفها نقضـاً لحق تقرير المصير (كان العرب لا يزالون يشكلون الغالبية الكبرى من السكان آنذاك)،وللوعود والعهود البريطانية كلها ، ولميثاق الأطلسي ولغيره من البيانات التي كان الحلفاء قـد اذاعوها عن أهدافهم من الحرب . وأضربت الاسواق والمدن العربية ، وعُزّزت المقاطعة العربية للبضائـع والخدمات اليهودية تعزيزاً كثيراً .

أما اليهود فلم يُرضهم من التقرير غير ما نصّ عليه من وجوب

ادخال مئة الف مهاجر جديد الى فلسطين . أما سائره فشجبوه ورفضوه . لقد دافعوا عن جيوشهم غير الشرعية ورفضوا التعاون مع السلطة المنتدبة لكبت الأرهاب . ثم شنوا حملة عنيفة من الارهاب ضدّ البريطانيين في المحل الأول . حتى اذا ارسل الرئيس ترومان ، في غير ما ضجة ، جماعة من الموظفين يمثلون لجنته الوزارية لشؤون فلسطين ليناقشوا رئيس الوزراء ، أتلي ، في الأمر رفعت « عصابة شترن » حرارة حملتها وزادتها ضراوة . ففي ١٦ حزيران نُسفت ثمانية من جسور سكة حديد فلسطين المركزية واحدى ورش العمل ، وإنما اصيبت الورشة بذلك بسبب من انفجارٍ وقع قبل أوانه وذهب ضحيته ثمانية عشر ارهابياً وضابط بريطاني واحد . وصُدّت السفن الموسوقة بالمهاجرين غير الشرعيين عن سبيلها واحتُجزت في قبرس ، في حين اختُطِف عددٌ من الضباط البريطانيين لمّا يُكشف النقاب عنه ، واتُّخذوا رهائن وجُلدوا بالسياط . ليس هذا فحسب ، بل إن عدداً من الجنود البريطانيين الذين قبلوا دعوات اليهود الى زيارتهم وُجدوا في ما بعد موتى بالسمّ ، او بطعنات السكاكين . وفي ثلاثة اشهر صُرع ستة عشر ضابطاً بريطانياً ، في جملتهم اولئك الذين سُمّموا في تل ابيب . وفي ٢٢ تموز سنة ١٩٤٦ نُسِف فندق الملك داود ، مقر القيادة العامة البريطانية ، بقنابل الارهابيين اليهود ، فقُتِل مئة وستة اشخاص ، وجرح ستة واربعون .

وفي سنة ١٩٤٧ تعاظمت موجة الارهاب اليهودي اكثر فأكثر . فخطفت العصابات اليهودية الجنود البريطانيين وجلدتهم

او قتلتهم . وأوقع اليهود بثلاثة من اولئك الجند ثم شدّوهم الى الاشجار وراحوا يطعنونهم بالحراب ، ثم وضعوا القنابل اليدوية داخل قمصانهم . وحوالى هذه الفترة بالذات نُشر اعلان «بن هشت» في الصحف الاميركية معلناً انه كلما قُتِل جندي بريطاني او ذُبح رجل عربيّ ، اقام يهود اميركة عيداً صغيراً في قلوبهم . »

وخلال عام ١٩٤٧ ضاعف اليهود نشاطهم في ميدان السلب والنهب . فسرقوا الاسلحة والذخائر من مستودعات الجيش ، بل سرقوا حتى دبابات شيرمان التي قُدمت الى البريطانيين اثناء الحرب العالمية الثانية بموجب قانون الاعارة والتأجير . وقد لعبت اثنتان من هذه الدبابات دوراً بارزاً في الحملة الارهابية التي شنّها اليهود على المزارعين العرب وعائلاتهم .

وأخفق عرضان أخيران قدمتهما الحكومة البريطانية لحلّ قضية فلسطين (وقد عُرف احدهما بمشروع موريسون) . وفي ١٨ شباط ١٩٤٧ أعلن البريطانيون عجزهم عن الوصول الى حلٍّ يرضي الفريقين جميعاً ، وأحالوا المشكلة الفلسطينية الى الامم المتحدة . فعينت جلسة خاصة لدراستها في شهر نيسان .

وكان الارهابيون قد واصلوا ، في الوقت نفسه ، اعمال العنف . فأخرجت القُطُر الحديدية عن خطوطها ، وقُتل مئات وجُرح مثلهم . وفي ١٧ آذار نسف اليهود نادي غولدسميث الخاص بالضباط فقُتل عشرون ضابطاً بريطانياً وجُرح ستة وعشرون . وأخيراً فرض الانكليز الاحكام العرفية وقبضوا على مئة وثمانية وعشرين ارهابياً ، وحكموا على ثمانية وعشرين منهم بالموت ، ولكن أربعة من هؤلاء نفّذ

فيهم الحكم ليس غير . أما الباقون فاستُبدل بحكم الموت الصادر ضدهم السجنُ مدى الحيـاة ، ثم أُطلق سراحهم في الحال بعد ١٥ نوار سنة ١٩٤٨ عندما أصبحت اسرائيل ، رسمياً ، دولة مستقلة .

وبعد أيام قليلة انقضت على إحالة الحكومة البريطانية المشكلة الفلسطينية برمتها الى الامم المتحـدة ، برّر ايرنست بيفن وزير الخارجية البريطاني هذا التصرف أمام مجلس العموم فقال :

« . . . . لو كان الأمر قاصراً على مسألة المئة الف مهاجر لكان في ميسورنا ، في ما أعتقد ، ان نوجد لهم مأوى . أجل ، كان في الميسور إيجاد هذا المأوى لو كان عليّ أن أحلّ المشكلة الانسانية الخالصة ليس غير . ولكن ليس هذا هو الوضع مع الأسف . فمن وجهة النظر الصهيونية ليس المئة ألف غير بـــداءة ، والوكالة اليهودية تتحدث بلغة الملايين ، وأحسب أن من المستطاع إقناع العرب بقبول مئة الف مهاجر جديد ، بطريقة منظمة ، وعلى أسس إنسانية* ، نظراً الى الحالة الاوروبية ، لو تُرك امر الهجرة في ما بعد — وأنا أؤكد على هذا — الى ممثلي الشعب الفلسطيني المنتخبين .

« وعندي ان مطلب العرب هذا مشروع ، ومفحم . فهنا في بريطانيـــة العظمى ، نقرر نحن بوصفنا مجلساً للعموم ما إذا كان للناس ان يدخلوا الى بلادنا أم لا . وليس أحدٌ غيرنا يتمتع بهذه الصلاحية . فكيف يُسمح لوكالة خارجية ، تمولها في المحـــل الأول هيئات أميركيّة ، أن تقرّر عدد الاشخاص الذين ينبغي ان يدخلوا الى فلسطين ، وان يتدخلوا في حياة العرب الاقتصادية

* صرح لي كثير من زعماء العرب بأن مثل هذا الطلب كان خليقاً بأن يقبل .

وهم الذي قطنوا تلك الديار منذ ألفي سنة ؟ »

وبعثت هيئة الامم المتحدة لجنةً لتقسيم فلسطين بين العرب واليهود . وكان التشويش والاختلاط اللذان نشآ عن ذلك من الطراز الأول. فقد قسّمت فلسطين الى مناطق لا رابط بينها ولا اتصال، بعضها للعرب وبعضها لليهود . والواقع ان الثمرة الاخيرة لهذا التقسيم أشبهت كما قال جيمس باركز ، البريطاني اليهودي الهوى ، بيوت الشطرنج المتعاقبة . ولعل ذلك الحلّ أن يكون أسخف الحلول التي يمكن اقتراحها واكثرها استعصاء على التطبيق . وفي استطاعة المرء ان يتصور وقعه في نفوس الأذكياء من العرب واليهود على السواء . وليس من ريب في أن كلاً من الفريقين قد انتهى الى الشعور بأن المستقبل رهنٌ بما يستطيعون هم تحقيقه لأنفسهم .

ولم يكن في ذلك شيء جديد ، بالنسبة الى الارهابيين اليهود . ذلك بأنهم كانوا خارجين على العدالة منذ ١٩٤٤ وكان عندهم سلاح ، بل لقد كان عندهم مصفحات ، وخبرة كبيرة في صناعة القتل . وفي اوائل عام ١٩٤٨ وضعوا خطة العمل . وعينت الامم المتحدة بالاتفاق مع بريطانية العظمى ، يوم الخامس عشر من نوار موعداً لانتهاء الانتداب البريطاني واقامة دولة اسرائيل المستقلة على اساسٍ من التقسيم الجغرافي العجيب الذي اقترحته لجنة الامم المتحدة .

وكانت لـ «عصابة شترن» والـ «ارغون تسفاي ليومي» آراؤهما الخاصة في تعديل الحدود المقترحة . فاعتزمتا ترويع العرب ، من طريق شنّ حملات منظمة على القرى الزراعية العربية ، وإكراههم

على التخلي عنها لليهود . والواقع ان هذه الخطة ، التي عُرفت في الاوساط غير الرسمية باسم «عملية الذعر» ، دُرست احسن الدرس ، ونفّذت بأشد الحماسة ، واقترنت بأعظم النجاح فلم ينتصف شهر نوار حتى كان نصف مليون عربي ممن نجوا من المذابح المتعاقبة يفرون بأنفسهم ، مروّعين مذعورين ، الى صحارى شرقيّ الاردن وسورية والعربية السعودية ، ، لأنه كان على اليهود أن يذبحوا سكان بضع قرى ليس غير ثم تتولى محطة اذاعتهم الباقي . وتفصيل ذلك ان الراديو اليهودي كان يتباهى بتدمير القرى العربية وذبح سكانها ذبحاً اجماعياً ثم يحذّر العرب قائلًا : «إن عليهم ان يدركوا حين يرون دبابات اسرائيل وجندها في الطريق اليهم ان المصير نفسه ينتظر قريتهم . »

وينبغي ان نكرّر ان هذه المجازر لم تكن عفوية ولكن مبيّتة مدروسة . ففي الصحيفة الناطقة بلسان عصابة شترن — جريدة هاماشكيف *Hamashkif* — نص المسؤولون في المنظمة على ان خططهم عُرضت على القيادة العسكرية اليهودية واقترنت بموافقتها . وفي سنة ١٩٥٠ نهض إرغـــونيّ سابق في الكنيست (البرلمان الاسرائيلي) واتهم داڤيد بن غوريون بأنه هو نفسه الذي اقترح « عملية الذعر » هذه . وايّاً ما كان فأن سلسلة موصولة من المذابح تُسفك فيها دماء القرويين العرب العزّل من السلاح طوال أسبوع كامل لا يمكن ان تتم من غير موافقة ضمنيـــة رسمية من المسؤولين في تل أبيب .

وكانت دير ياسين أول نصر أحرزته الأرغون . ففي الصباح

الباكر من ٩ نيسان سنة ١٩٤٨ ، حين كان المزارعون العرب وافراد أسرهم ينصبون خيامهم في سوق القرية ، اقتحمت دبابتان من طراز شيرمان طرق دير ياسين الضيقة وسحقتا فلاحين متعبين كانا نائمين قرب عتبتي بيتيهما . وكان يصحب الدبابتين قوة من اليهود يبلغ عددها خمسمئة رجل مزوّدين بمدافع التومي والاسلحة الاوتوماتيكية الفتاكة .

ولقد صرّحت القلة القليلة التي بقيت على قيد الحياة من أبناء دير ياسين — **ومعظمها من النساء اللواتي سُلبن كل ما عندهن ومُزقت اثوابهن تمزيقاً، واللواتي استعرضهن اليهود في شوارع تل ابيب في سيارات كبيرة قبل ان يسلموهن بالرغم منهم الى الصليب الاحمر الدولي** — أقول صرحت هذه القلة القليلة التي لم تأتِ عليها فظائع اليهود في دير ياسين ان الدبابتين اقتحمتا سوق القرية واطلقتا نيران المدافع الاوتوماتيكية على الأهلين المحتشدين في السّاحة .

وبعد ان أطلقت الدبابتان نيرانها تعقب الجنود الاسرائيليون أهل القرية الفارّين بأنفسهم ، وقتلوهم في غير ما استبقاء بينما كانوا يهربون او يختبئون في الطرق او في منازلهم . وفي دير ياسين تكرّرت مشاهد أريحا التي وصفها الكتاب المقدس بقوله : « وقتلوا كل ما في المدينة ، من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير ، بحدّ السيف . » * **وما من احد يدري عدد ضحايا المذبحة، على وجه الضبط ، ولكن الامر الثابت أن**

* يشوع ، الاصحاح السادس ، آية ٢١

الذين نجوا من الموت ، من ابناء دير ياسين ، يقلون عن الثلاثين شخصاً .

وكانت بعض الفظائع التي تلت تتطلب شيئاً من الخيال . فقد جمع الغزاة خمساً وعشرين امرأة حاملاً ، ووضعوهن في صف طويل ثم اطلقوا عليهن النار . ثم انهم بقروا بطونهن بالمدى او بالحراب واخرجوا الأجنة منها نصف إخراج . وقطّع الأطفال إرباً إرباً أمام اعين آبائهم الذين ما زالوا على قيد الحياة . وخصي الصبية الصغار قبل ان يقتلوا . وانتزعت الحلى والخواتم من اجساد القتلى . وبترت اصابع الضحايا الذين وجد المعتدون عسراً في انتزاع خواتمهم .

وطلب جاك دو رينييه ، مندوب الصليب الاحمر الدولي ، الأذن من الوكالة اليهودية في الدخول الى دير ياسين . ولكن الوكالة لم تسمح له في ذلك الا بعد انقضاء ثمان وعشرين ساعة لكي تتيح للارغونيين فرصة يستطيعون خلالها اخفاء معالم الجريمة . وهكذا ألقي نحو من مئتي جثة من جثث القتلى في بئر عتيقة ، وغطيت بالقذر والاوساخ . ولكن الرائحة النتنة فضحتهم ، وتمكن المندوب البلجيكي من أن يحصي الجثث بعد اخراجها من البئر ، بيد ان كثيراً من الاجساد لم تكن كاملة .

وتحدث دو رينييه ، في شيء من الاشمئزاز ، عن الاشياء التي شاهدها وروى كيف انه وجد فتاة عربية في السادسة من عمرها لا تزال حية تحت ركام من الاجساد ، وكيف انه حملها الى المستشفى وعلق على هذا بقوله : « كان ذلك ، بكل بساطة ، شيئاً فظيعاً . »

لقد حاول بعض الصهيونيين الاميركيين ان ينكروا ، في حنق وثورة ، ان تكون مذبحة دير ياسين قد وقعت في يوم من الايام ... زاعمين أنها مجرد « دعاية عربية شريرة » . وليس في استطاعة أبناء دير ياسين أن يجيبوا عن ذلك ، فهم صامتون. ولكنّ ثمة الصحيفة الرسمية الناطقة بلسان عصابة شترن، والمسماة « ميفراكّ » Mivrak . ففي ٧ ايلول سنة ١٩٤٨ كتب دانيال دولوس الى صحيفة « واشنطون ستار » يقول :

« لا نزال نجهل الى اي مدى يمكن لأفراد الأرغون وشترن أن ينسقوا جهودهم في ما يتصل بشرقي الأردن . والواقع أن جهدهم المشترك الاكثر شهرةً يتمثل في ذلك الهجوم الليلي الذي شنوه على قرية دير ياسين قرب القدس ، في الربيع الماضي . وقد صرّح ناطقون باسم شترن في مؤتمر صحفي بأن ما يزيد على مئتين وخمسين قروياً عربياً ذُبحوا هناك، اكثر من نصفهم نساء واطفال.

« وتشير شترن (عصابة شترن) في اعتزاز وفخر الى دير ياسين ابتغاء الحصول على اكبر عدد ممكن من الاصوات في المعركة الانتخابية . فقد نشرت جريدة « ميفراك » الناطقة بلسان شترن افتتاحية جاء فيها قولها : « إن كل امرىء يعرف ان الهجوم على دير ياسين هو الذي اوقع الرعب في قلوب الجماهير العربية وأدى الى فرارها المذعور — هو المعجزة المباركة التي قوّت عزائمنا وانزلت بالعدو ضربةً اعظم بكثير مما كان يمكن لحكمة جميع قواد الهاغانا مجتمعةً ان تصنعه ... ونحن نرجو ان لا تُسفح دموع التماسيح ، بعد اليوم ، على فظائع دير ياسين . »

ولم تكن دير ياسين غير بداءة واستهلال . ففي اليوم الرابع عشر من نيسان تكرر المشهد في قرية نصر الدين . وفي الخامس من نوار هاجم الهاغانا (جيش اسرائيل الرسمي) عدداً من القرى القائمة على ضفاف الاردن قرب القرية المعروفة باسم بيت الخوري. وفي هذا الهجوم قتل مئات من العرب (ونحن نجهل الرقم الدقيق لصرعى الهجوم لأن عدداً كبيراً من الضحايا ألقي به في المستنقعات وفي مياه النهر) وجرح ما يزيد على الف ومئتين . ومُثل بالضحايا – رجالاً ونساء واطفالا – قبل الموت وبعده . وقطعت رؤوس عدد من الرجال بسبب من انهم أبدوا بعض المقاومة ، على ما يظهر . ولا تزال قلة قليلة تمثل الناجين من تلك المذبحة تحمل آثارها المشؤومة : أيادي مقطوعة ، او أرجلاً مبتورة . أما الناجون بانفسهم والذين كان لا يزال في مقدورهم ان يسيروا على اقدامهم او يصطنعوا اوصالهم في السباحة فقد روا الى سورية .

وفي ٦ و ٧ و ١٣ نوار شن اليهود هجمات جديدة على قرى عربية اخرى . ففي الزيتون ، وهي قرية يكثر فيها هذا النوع من الشجر ، جُمع أهل القرية كلهم في المسجد ، ثم نُسف المسجد بالديناميت على رؤوس من فيه . وفي بيت درّاس طبق اليهود الخطة نفسها التي طبقوها في دير ياسين والتي تقضي باختيار عدد من النساء الحوامل وبقر بطونهن بالمدى والحراب .

ولائحة الفظائع اليهودية المماثلة طويلة جداً ، ولكنها كانت كلها تنهج هذا النهج ، وتطبع على هذا الغرار . وهي تفسّر لنا

كيف استطاعت قوىً من الارهابيين والهاغانا صغيرةً نسبياً ان تخرج نحواً من ٩٠٠،٠٠٠ عربي من الارض التي حرثوها وعمروها لأنفسهم منذ آلاف السنين . لقد نجحت « عملية الذعر »، نجاحاً عظيماً جداً ، من وجهة النظر الصهيونية ، ولعل واضعها ان يكون فخوراً بها !

ولكن الشيء المهم حقاً هو ان اسرائيل أصبحت دولة مستقلة في ١٥ نوار ، وان الرئيس ترومان كسب السباق الى الاعتراف بها ، وكسبه بمراحل واسعة !

obeikandl.com